الاحتضارات والقبريات

ولما احتضر الامير فلادمير مونوماخ الروسي كان مما اوصى به بنيه قوله " لا تسمحوا بظلم الشعب واضطهاد المساكين بل اصفوا وترأفوا واعدلوا في احكامكم. وتحلوا بفضيلة التواضع التي تقيكم من الرذائل الوبيلة وعاملوا الناس بما تريدون ان يعاملوكم به . واكرموا من هو اكبر منكم سناً ومعرفة . واحترموا نساءكم من دون ان تسلطوهن عليكم . ولا تتأخروا عن الحرب التي يكون فيها خير لوطنكم . وحاذروا الكذب والغش والخداع والمكر والسكر والنفاق وما اليها من الرذائل والنقائص والاخلاق السيئة . وعودوا المرضى وشيعوا الموتى الى مقابرهم وكونوا للأرامل عوناً وللأيتام ملاذاً ولا تخرجوا خوف الله من قلوبكم فتظلكم رحمته وتشملكم نعمته . وعلى الجملة فاحرصوا على كل عمل خيري يجر المنافع الى بلادكم ورعيتكم . . . . " ثم لفظ انفاسه سنة ١١٢٥ م

ولما دنت وفاة ابن العبري كرر على تلاميذه قول المسيح في انجيل يوحنا " بهذا اوصيكم ان يحب بعضكم بعضاً " وتوفي سنة ١٢٨٦ م

ولما دنا اجل السلطان عثمان جد السلاطين العثمانيين العظام استقدم ولده اورخان وهو في بروسة فاجتمع به في مسعود وهناك اوصاه قائلاً : اني مغادر هذا العالم غير آسف لأني تارك من يخلفني فكن يا ولدي عادلاً رؤوفاً واتبع في احكامك شريعة النبي ثم فارقت نفسه الجسد سنة ٧٢٧ هـ — ١٣٢٦ م

ولما احتضر كريستوف كولمبس مكتشف اميركا قال " اجعلوا القيود معي في التابوت " ثم صاح " يا مخلصي بين يديك استودع روحي " وتوفي سنة ١٥٠٦

وقال يعقوب الخامس ملك اسكتلندا (١٥٤٢) " اتى (يريد التاج) مع ابنة و يذهب مع ابنة "

وقال توثيروس (١٥٤٦) " في يديك استودع روحي يا رب اله الحق انت الذي فديتني واحببتني كثيراً "

وقال كرلوس الاول ملك انكلترا لما حكم عليه بقطع عنقه (١٩٦٤) « اني سأترك تاجاً يفسد وبنى لأتوج تاج لا يفسد ولا يفنى »

وقال ديكارت اب الفلسفة الفرنساوية (١٦٥٠) « هلم يا نفسي فانك انت من زمن

طويل اسيرة وهذه هي الساعة التي تطلقين فيها من سجنك فيجب ان تحتملي مفارقة هذا الجسد بشجاعة وسرور»

وقال المحامي الشهير اومر تالون ساعة موته لولده الذي كان حذاء سريره يطلب بركته «جعلك الله يا بني رجل خير» وردده ثلاثاً ثم لفظ روحه (١٦٥٣)

وقال يعقوب شرلي الذي توفي (١٦٦٦) ما معرّبه:

الا يا موت ادركني السرورُ ... فنفسي للاله غداً تصيرُ
وُجدنا نحن من عدم لوقتٍ ... فاناهُ تنفسنا القصيرُ
رأيناهُ طويلاً والبلايا ... تصادم فيهِ وهي لنا نذيرُ
نعم قد جمَّع الاكدار عمرٌ ... كما قد جمَّع الذرات نورُ
سقيلي رافلاً في ارجوان ... ومن هولا يسُ الشعر القبورُ
قربْ فضائلٍ بالخطب يهزا ... وليس بجازع مما يثورُ
وتعبر نفسهُ بحر اضطرابٍ ... الى سِنا السلام فتستنيرُ

وقال الوزير كولبر وهو يسلم الروح (١٦٨٣) «لو خدمتُ الهي نصف ما خدمتُ به ملكي لما كنت مرتاباً بخلاص نفسي — اما الآن فلا اعرف الى اين اصير»

وكتب لافونتين قبل موته الى صديق لهُ (١٦٩٥) «ياعزيزي نعم ان الموت لاشيء ولكن افتكر انني سأقابلهُ تعالى»

وقال راسين لبوالو وهو يحتضر (١٦٩٩) «انني سعيد جداً بموتي قبلك» واشار بذلك الى ان بوالو كان يحامي عن راسين في رواياته ولا سيما رواية عثليا. وكان راسين صديقاً مخلصاً لكل من بوالو ولافونتين وموليير

ولما كان بوسيه الخطيب الفرنساوي الشهير يلفظ انفاسهُ (١٧٠٤) قال احد الحاضرين كلمة (المجد) فاجاب وهو يحتضر «اتركوا هذا الخطيب وتضرَّعوا الى الله ليغفر خطاياي»

ويروى ان لويس الرابع عشر سأل المرشال دي لكسمبورغ وهو يجود بنفسهِ «ماذا تريد» اجاب المرشال «ساعة حياة» وتمنى منيتهُ

وقال لويس الرابع عشر ملك فرنسا المشهور بالكبير للذين يحدقون بسريره ساعة احتضارهِ (١٧١٥) «لماذا تتوخون انظنون انني احيا الى الابد» ثم توقف هنيهة وقال «كنت اظن ان الموت اصعب من هذا»

ولما شعر بطرس الاكبر ملك روسيا بدنو ساعتهِ (سنة ١٧٢٥) طلب دواة وقرطاساً

واراد ان يكتب وصيتهُ الاخيرة فكتب منها « اعطوا كل شيء لأ . . . . » ثم وقف فكرهُ وقلمهُ فصاح بمن حولهُ « احضروا الاميرة حتى بتروتا » وهي ابنتهُ كأنهُ كان ينوي ان يملي عليها فلما حضرت عُقِل لسانهُ وبقي لم ينبس ببنت شفة الى ان مات بعد قليل

وسقط جيلبر الشاعر الفرنسوي عن جوادهِ فجنَّ وأُدخل المستشفى ومات بعد ثمانية ايام (١٧٨٠) مختنقاً بمفتاح صغير ابتلعهُ ويُروى انهُ قال هذه الابيات على فراش الموت وقد عرَّبتها وفق الاصل ما امكن

الى خالقي القدوس قلبيَ ارفعُ ... وفرق فراش الموت عينيَ تدمعُ
ونفسيَ ضميري سوف يشفي لانهُ ... يسلّيني بالصبر والصبر أدرعُ
دعا البؤسا اولادهُ فاغاثهم ... وجند العدى من حولهم قد تجمَّعوا
يقولون عني والضغائن ملؤهم ... « ألا فليمُتْ والمجد معهُ مُضيَّعُ »
ولكن لقلبي الساكن الربُّ قائلٌ ... « سيغضدك البغض الذي منهُ تجزعُ »
فأولئك الأعدا انالوا صديقهم ... مكايدهم فالحبُّ منهم تصنَّعُ
ببيعك بيعَ العبد من قد امنتهُ ... وكم ساذج في ذلك الحبِّ يخدَعُ
يردُّك نفسيُ الفكرِ من ألم البلا ... إلى خالقٍ صوت التنهُّد يسمعُ
هو الغافر الاثام في الضعف والشقا ... فيكفيك ان الله في الضيق مفزعُ
يحرِّكُ عَدْلاً ليس يفنى سكونهُ ... ويجبر قلباً بالأسى يتقطَّعُ
يحصِّنك الأعداء كالقلعة التي ... توالت عليها النار فالبغض ينفعُ »

* * *

حنانيك يا ربي تباركتَ سامعاً ... ضراخي لأني عند موتيَ اضرعُ
تعظَّمتَ سبغ ردَّ الطهارة منعماً ... عليَّ فأنت الراحمُ المترفعُ
تعاهدُ جسمي في الضريح بنظرة ... فتحيي رُفاتي بعدما طال مصرعُ
كأني انا ضيف الحياة يشوقني ... اليها اتيتُ اليوم واليومَ أرجعُ
اموتُ وما من ذارفٍ عبراتهِ ... عليَّ ولا قربي نسيبٌ مودِّعُ
فالفظ سبغ لفظي الحياة مردَّدًا ... وداعاً بهِ هذي الطبيعة تصدعُ
على القبَّة الزرقاء خيمة جنسنا ... سلامٌ بهِ نور الكواكب يسطعُ
سلامٌ على تلك الحقول وحسنها ... سلامٌ على المغنى الذي فيهِ ارتعُ
فليتَ صحابي بعدما طال عمرُهم ... بما قد حرمتُ الآن منهُ تمتَّعوا

يموتون بين الاهل حيث نسيبهم يغمّض اجفانًا لهم وهو موجعُ

وقال الدكتور وليم هنتر سنة ١٧٨٣ " لو كان لي قوة لامسكت قلمًا وكتبت ما اسهل وابهج ما يسمونهُ موتًا "

وقال انطون بينيزه الفرنساوي المحسن العظيم لما طلب منهُ احد اصدقائهِ جمع اوراقهِ لنقل سيرتهِ عنها فمنعهُ " اذا كنت تريد ان تذكرني بعدما افارق هذا العالم فقل ان انطون بينيزه كان فقيرًا ومن فضل الله استحق ان يعرف ذلك " ثم توفي سنة ١٧٨٤

وقال توما غينسبرو المصور الانكليزي سنة ١٧٨٨ : " كنا ذاهبون الى السماء وقنديلك (المصور المشهور) ايضًا "

وقال ميرابو سنة ١٧٩١ : " اني بموتي احمل معي تابوت الملك " وكفى بذلك عن امتداد الثورة وتلاشي الملكية وهو كما لا يخفى كان محامي الشعب ومن حزبهم

وقالت ماري انطوانيت (١٧٩٣) " الوداع يا بنيَّ الى الابد فانا ذاهبة الى ابيكم "

وقال لويس السادس عشر قبل قتله (١٧٩٣) : " اني اموت بريء الساحة مما اتُّهمتُ بهِ زورًا فلذلك اغفر لجميع من سعى بقتلي واتمنّى انَّ دمي لا يعود ابدًا على فرنسا "

ولما احتضر اميل زوتشيلد مؤسس بيت روتشيلد المشهور اوصى بنيهِ الخمسة بست وصايا قائلاً (١) تمسكوا بالشريعة الموسوية (٢) كونوا متحدين قلبًا وقالبًا ما دمتم في الحياة (٣) اعملوا بمشورة والدتكم (٤) اشركوا الأسرة بثروتكم (٥) لا تتزوجوا بغير بنات اسرتكم (٦) قدموا الطاعة لاكبركم سنًّا

وقيل ان من آخر اقوال روبرت بيكول الشاعر الانكليزي ما عرَّبتهُ ملخصًا

تبقى على الاوراق آثار الندى كالدرّ زيَّن بالبهاء زبرجدا
فجلت بها تلك الاقاحي فانحنت وهي الاديبة جملت بحلى الهدى
ونسيمنا يجبي الرياضَ عبيرهُ متنائيًا متدانيًا متردّدا
لكنني امضي واترك موطني متجرّعًا لفراقهِ كأس الردى
فكأنما صوت الطبيعة منذرٌ منذ الصبا اني اموت مجرّدا
والنفس تحكي بُرعُمًا لكنهُ في الخلد يزهر ثم يبقى سرمدا
انا واثق برجايَ والايمان فالرحمنُ اصبح في الشدائد معضدا
ومن الشقاء الى البقاء ترحّلي فلمَ التفجّعُ والمنا ألق غدا
فهناك جناتٌ تناهت بهجةً سأكون فيها رائعًا طول المدى

وقال مودي الممثل شعرًا من شكسبير يخاطب بهِ الحياة " اذا فقدتك افقد شيئًا لا يحتفظ بهِ الاَّ المجانين "

ولما كان الاميرال نلسون الانكليزي الشهير في واقعة طرف الغار وأُصيب بجراح مؤلمة كان يقول عند نزعهِ اشكر الله لاني تممت واجباتي — وكرّر ذلك الى ان توفي سنة ١٨٠٥

وقالت مدام دي ستيل الكاتبة الفرنسوية (١٨١٧) « احببت الله وابي وحرّيتي »

ومن اغرب ما حدث لكثير من جنود نابليون بونابرت ان احدهم اقبل على بونابرت وهو يتفقد الجرحى في معركة اوسترليتز . فوضع يدهُ على جرحهِ ودنا منهُ متثاقلاً ليهنئهُ بالظفر فابتسم لهُ ثغر نبوليون وقال لهُ : اراك ايها العزيز جريحًا فسلمك غير متألم — فاجاب « اني ايها المولى لست بجريح بل قتيل » ثم سقط ميتًا امامهُ

وكان جرّاح انكليزي يطوف بين الجرحى في معركة ووترلو فرأى جنديًا فرنساويًا يتألم من رصاصة في صدرهِ فسألهُ عما اذا كان يريد ان يشق صدرهُ ويخرج الرصاصة منهُ فاجابهُ « ايها الصديق احفر فيهِ الى حيث تجد الامبراطور » — اي الى سواد القلب — ثم اسلم الروح وهو تحت العملية الجراحية

وقال نابوليون وهو محتضر (١٨٢١) « الله والشعب الفرنساوي . والجيش »

واوصى بعضهم عند موتهِ (١٨٢١) قائلاً « انا جزين ايلت اوصي ان يشتري المفوّضون في توزيع تركتي صورةً تمثل عقربًا تلسع اليد التي انقذتها من الهلاك . وتعطى هذه الصورة لفلان ليتذكر دائمًا خيانتهُ ولؤمهُ ونكرانهُ الجميل لاني انقذتهُ من مخالب الفاقة والذل باعانتهِ بمبلغ ثلاثة عشر الف ليرة من مالي نجاني »

وقال توما جفرسن ثالث رئيس للولايات المتحدة الاميركية (١٨٢٦) « اني اسلم نفسي لله وابنتي للوطن »

وقال هنري بستالوزي المحسن العظيم (١٨٢٧) وقد جمع اسرتهُ يوصيها « يا اولادي لا تقدرون ان تنعموا عملي ولكن يمكنكم ان تفعلوا الخير ما استطعتم ويمكنكم ان تعطوا الفقراء ارضًا ليفلحوها وها انا ذاهب لاطالع كتاب الحقيقة . فاغفر لجميع اعدائي ذنوبهم وادعولهم بالسلام ما زلت راحلاً الى السلام الابدي . ولقد كنت اودّ ان احيا عمرًا اطول لاتم عملي ولكن اشكر الله الذي ينقلني من هذه الحياة الارضية فانتم يا بنيَّ امكثوا بسلام في مدينة نيهوف واطلبوا السعادة بين اسرتكم » ثم اشار اليهم ان لا يبنوا بناء فاخرًا على قبرهِ قائلاً « لا يجد ربي الاَّ حجرًا غير منحوت لاني لم اكن شيئًا غير ذلك » ومات

وقالت مدام ديدفان (جورج صند) سنة ١٨٧٦ «اتركوا القبر اخضر — لا تغطوه بالآجر ولا بالحجارة»

ولما رُميت قنبلة على الامبراطور اسكندر الثاني الروسي وهو راجع الى قصر الشتاء وجرح بانفجارها كثيرون صاح بحنان ولطف "اتركوني اتر الجرحى" ثم القيت عليهِ قنبلة فقتلتهُ سنة ١٨٨١

ومن آخر اقوال لنغفلو الشاعر الاميركي المتوفى سنة ١٨٨٢ "حسبي تعزية اني اذا راجعت كتاباتي لا اقرع سني ندماً على سطر واحد مما كتبت لان قصدي جميعهُ كان حميد المبدإ . وافضل تعزية لشيخوختي ان كل ما كتبتهُ كان للبنيان لا للهدم ..."

ولما احتضر الامبراطور فريدريك الالماني اوصى ابنهُ الامبراطور غليوم الثاني الحالي بقولهِ "يا بنيَّ تعلَّم احتمال النوائب ولا تضجر" وتوفي سنة ١٨٨٨

وبينما كان الاميرال جورج تريون الانكليزي يغرق في الدراعة لكتوريا قرب طرابلس الشام سنة ١٨٩٣ قال "السلام على انكلترا"

ويقال ان الاسكندر الثالث قيصر روسية قال في صباح يوم موتهِ لزوجتهِ القيصرة "اني احسن بانقضاء اجلي فكُنّي روحك وها انا ذا مستعد للموت". وقرب وفاتهِ قال لولي عهدهِ (الامبراطور نقولا الثاني الحالي) بعد ان وقف على الدستور الذي كان قد اعدَّهُ ليوزِّعهُ على الشعب "اعتنِ بالسلم الذي لم يتكدَّر صفاؤهُ مدة ملكي" — ثم اوصاهُ بقولهِ "اعلم يا بني ان هذا عنوان مجدي ولا يكمل منشورك الاَّ به. وقد احسنت لعدم تعرُّضك فيهِ لذكر شيء مما تستطيع ان تمنحهُ لامتك من الحرية اذ لا ينبغي ان ينال الشعب الحرية دفعةً واحدة بل شيئاً فشيئاً على قدر حاجتهِ اليها" ولم يلبث ان عُوجل الى رحمة ربهِ سنة ١٨٩٤

ولما احسَّ العلاَّمة الشهير الدكتور ڤانديك بقرب وفاتهِ (١٨٩٥) اوصى بان يكون الاحتفال بدفنهِ بسيطاً جداً فيصلَّى على جثتهِ في منزلهِ ولا يتلى على نعشهِ الاَّ فقرات معينة من كتاب الصلاة ولا يؤبَّنهُ خطيب ولا يرثيهُ مؤبِّن وان يُدفن عند الغروب. ودفنهُ الدكتور يوحنا ورتبات واحَّ عليهِ ان يأخذ شيئاً لتقويتهِ فقال "اني شبعت من الحياة فلا حاجة لي بعد الى غذاء فاذا كانت قد بقيت عليَّ خدمة لسورية فتممها انت عني" واسلم الروح

وودَّع فيلكس فور رئيس جمهورية فرنسا امرأتهُ واصدقاءهُ قبل موتهِ (١٨٩٩) قائلاً "اني استغفر من اسأت اليهم في حياتي واغفر لمن اساء اليَّ" وفاضت روحهُ

وآخر احتضار اوردتموهُ لارفع في الصفحة ٩٥٠ من السنة الماضية. الى غير ذلك مما لا يحصى

عيسى اسكندر المعلوف